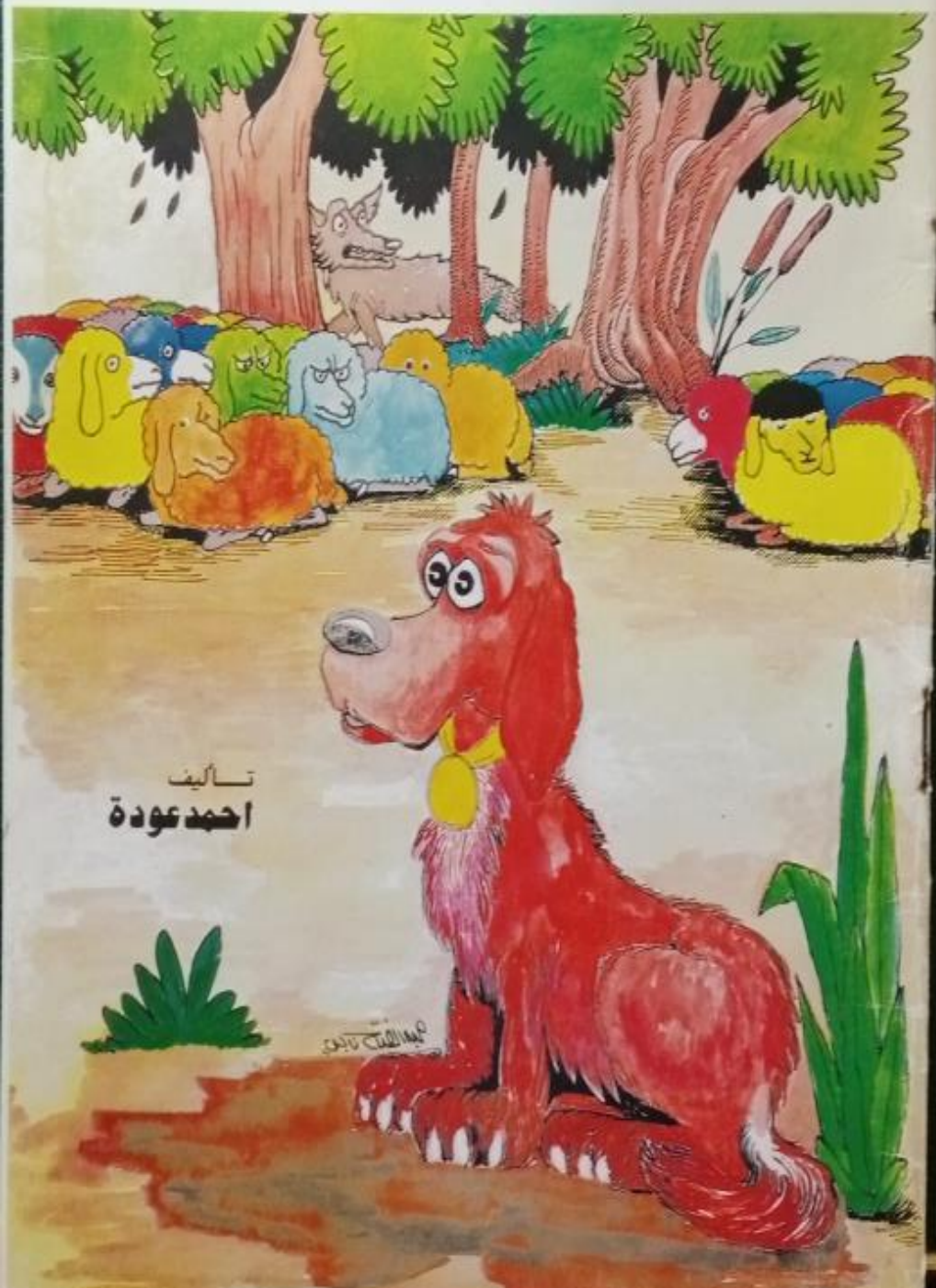


الكلب المخدوع



تأليف
أحمد عودة

رسم الفنان أحمد عودة

الْكَلبُ الْمَخْدُوعُ

الأعمالُ الكاملة

(3)

قصص للأطفال.

تأليف:

أحمد عودة

دار الجيل العربي للنشر والتوزيع.

2022م

الموضوع الرئيسي:

1- الآداب

2- القصص.

رقم الإيداع لدى مديرية المكتبة الوطنية:

(1984/7/310)

جميع الحقوق محفوظة للجمهور.

دار الجيل العربي للنشر والتوزيع

Mobile 8789591 79 00962 خلوي

e-mail: aljeelalarabi@yahoo.com

مراجعة وتحقيق: مظهر عاصف.

الغلاف والرسوم الداخلية: عبد الفتاح ناجي.

الدرسُ الأول

مُنْدُ نعومة مخالبيه؛ ومُذْ كانَ جرّوا ابنَ يومين
وهذا الذئبُ الأغر الشرس يُحبّ لحمَ الخرافِ
الصغيرة، ويكرهُ بعضَ الكلابِ حدَّ المقت. لقد اشتهى
رائحةَ اللحمِ قبلَ أن يذوقه؛ وسال لعابه لعطيرِ الدمِ قبلَ
أن يفتحَ عينيه المُغمضتين كما ولدته أمه الذئبة. قالَ
لها حين عادت بعد غيابِ طال أكثر من المعتاد:

- أشعر بأنك قد أحضرت لي شيئاً! ماذا جلبت لي
معك يا أُمي العزيزة؟

تجاهلت الذئبة لهاثها وخوفها من ذلك الكلب الأحمر
القوي؛ الذي كاد يقتلها حين أغارت على قطع
يحرسه؛ وسرّت لأن جرّوها وهو ابن يومين شمّ
رائحةَ اللحمِ والدم، وأنه زهدَ في لبنها اللذيذ. قالت
تداعبه:

- اقترب وارضع مني.



هَزَّ رَأْسَهُ مُمَانِعًا وَأَمَعَنَ فِي شَمِّ الرَّائِحَةِ. ضَحِكْتُ
الذئبُ بِانْبِسَاطٍ لِأَن جَرَّوَهَا سَيَكْبُرُ وَيَكُونُ ذَنْبًا لَا يَقْلُ
عِنهَا شَرَّاسَةً؛ حِينَ يَسْطُو عَلَى قِطْعَانِ الْمَاشِيَةِ. وَلَكِنهَا
لَمْ تَرْضَ عَنِ الْجُرْوِ حِينَ صَرَخَ قَائِلًا:

- أَرِيدُ أَنْ أَكُلَ مِمَّا جَلِبَتِ.

زَمَجَرَتِ الذئبُ وَرَجَرَتْهُ عَلَى إِحْلَاجِهِ، وَأَخْبَرْتَهُ بِأَنَّهَا
سَتَطْعِمُهُ وَلَنْ تَتْرَكَهُ جَائِعًا وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تُعَلِّمَهُ دَرَسًا
مُفِيدًا. شَحَذَ مَخَالِبَهُ وَأَنْيَابَهُ الصَّغِيرَةَ ارْتِيَاخًا فَفَرِحَتْ
الذئبُ وَوَضَّحَتْ لَهُ بِأَنَّ هَذَا سَيَكُونُ الدَّرْسَ الْأَوَّلَ؛ مِنْ
سَلْسَلَةِ دُرُوسٍ كَثِيرَةٍ عَلَيْهِ أَنْ يُصْغِي إِلَيْهَا إِذَا أَرَادَ أَنْ
يَكُونَ ذَنْبًا قَوِيًّا شَرَّاسًا.

طَوَى الْجُرْوِ مَعْدَتَهُ الْمَقْبُوضَةَ وَقَدْ تَشَوَّقَ أَكْثَرَ إِلَى
سَمَاعِ الدَّرْسِ. عِنْدَهَا تَفَاءَلَتْ أُمُّهُ الذئبُ بِهِ كَثِيرًا،
وَتَأَكَّدَتْ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِثْلَهَا لَا مَحَالَةَ وَقَالَتْ:

- انْظُرِ.

ولما شرع يُقَلِّبُ وجهه في كلِّ اتِّجَاهٍ ولا يرى؛ أشفقت
الذئبُ عليه فأخذت بمخالبه ووضعتها على رأس
الحَمَلِ؛ ثم على صدره، ثم على ظهره، ثم على بطنه،
ثم على قوائمه، ثم على إلبته وهي تقول في كل مرة:

- هذا رأس، وهذا صدر، وهذه بطنٌ وهي سهلةُ
المنال، وهذه قوائمٌ كان يقفزُ بها هذا الصغيرُ
الضعيفُ فرحاً قبل أن أصطاده، وهذه إلبته كان
يتبخترُ بها مزهواً في المراعي بجانب أمه. ضجرَ
الذئبُ الصغيرُ سريعاً فعنفته أمه الذئبة:

- صبراً يا عزيزي... واعلم أنك لن تأكلَ إلا بعد أن
تتعلّمَ وتحفظَ الدرس. هذا درسٌ مهمٌ يتوقفُ عليه
مصيرُنا نحن معشر الذئاب.

وحين رأت الدموعَ تكادُ تفيضُ من عينيه المغمضتين
حزنت قليلاً. حملتهُ تلاعبه وتطيب خاطرَه. فهو
ابنها الوحيدُ الذي توسّمت في النجابة والدهاء لحظةً
أن ولدته.

كَانَتْ كَكَلِّ الْأُمّهَاتِ مِنَ الذنَابِ تَعْتَنِي بِطِفْلِهَا وَتَحَبُّهُ؛
وَتَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ نَسَمَاتِ الْهَوَاءِ، لَكِنَّهَا لَمْ تَسْأَلْ نَفْسَهَا
وَلَوْ مَرَّةً؛ إِنْ كَانَتْ النِّعَاجُ تُحِبُّ أَوْلَادَهَا أَيْضًا! حِينَ
خَطَرَ لَهَا هَذَا لَمْ تَكْتَرِثْ بَلْ رَاحَتْ تَتَلَمَّظُ شَرَاهَا:

- هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَعَلَّمَتْهَا يَا عَزِيزِي هِيَ لِمَخْلُوقٍ
جَمِيلٍ اسْمُهُ الْحَمَلُ؛ مَخْلُوقٌ عَلَيْهِ أَنْ يَرعى كِي
نَبْقَى... ثَمَّ صَرَخْتَ بِحَقْدِ دَفِينٍ:

- وَهَذَا هُوَ الْحَمَلُ.

وَوَضَعْتَ الْجُرُودَ عَلَى الْحَمَلِ الَّذِي خَطَفْتَهُ بِخَفَّةٍ
وَسْرَعَةٍ هَائِلَةٍ مِنْ جَانِبِ أُمِّهِ وَهِيَ تَرعى مَعَ الْقَطِيعِ
فِي السُّهُولِ الْخَضِرَاءِ؛ غَيْرِ مَكْتَرِثَةٍ بِصَرَاحِهَا
وَبِكَائِهَا. سَأَلْتَ الذَّنْبِيَّةَ جُرُودَهَا بِصَوْتٍ مَمْطُوطٍ.

- مَا اسْمُهُ؟

قَالَ الصَّغِيرُ بِسْرَعَةٍ طَرِبَتْ لَهَا كَثِيرًا:

- اسْمُهُ حَمَلٌ.

ثم أردف راجياً.

والآن وقد تعلّمتُ الدرس أريد أن أكلَ من لحمه
الشهي؛ وأشربَ من دمه الزكي، لم أعد أطيق صبراً.

هممت الذئبة مؤنّبة.

- ليس قبل أن تتعلّم أن مثل هذا الحمل سيكون
طعامك المفضّل حين تكبرُ وتعتمدُ على نفسك في
الغزو والإغارة، لن يكونَ الأمرُ سهلاً حيث ستجده
بين قطيعٍ كبير. عليك حينها أن تكونَ لَمَاحًا ودقيقًا؛
وأن تقف على تلةٍ عالية وتراقبَ القطيعَ بصبرٍ
وتركيز إلى أن ترى الحملانَ لاهيةً تلعب؛ وأمهااتها
مشغولات بالرعي لتمتليّ ضروعها بالحليب.

عندها فقط ستهجم بسرعة خاطفة كسرعة البرق؛
أعني كسرعة الطائرات التي تمر من فوق الغابة. فإن
هجمت ولا بدّ أن تهجمَ فعليك بالحملان، تغرس
مخالبك وأنيابك في بطونها ثم تحملها وتعودُ بها إلى
جرائك.

ضحك الذئب الصغير حتى كاد أن ينسى الجوع.

- وهل سأكبر مثلك ويكون لي جراء، أقتل الحملان لأطعمها؟

هممت الذئبة مؤكدة:

- بالطبع يا حبيبي. ولهذا أعلمك... وحين تقف على أرجلك سأدرّبك كيف تهاجم القطعان وتشتتها وتصيئها بالذعر... سيبهجك منظرها كثيرا وستنسى الجوع ربّما. ولك علي أن آخذك قريبا معي للتفرّج كيف يصيئها الذعر الشديد ساعة أهاجمها بأنيابي ومخالبي؛ فتنغو النعاج والحملان ثغاء يقطع القلوب الضعيفة؛ ويطرب قلوب الأقوياء أمثالنا.

ابتهج الصغير، فصقّ بيده ضاحكا وكاد الجوع يفارقه تماما. وضع رأسه على صدر أمه، وراح يتمنى أن يكبر ويصير بحجم أمه الذئبة، يهاجم القطعان، يشتتها ويخطف الحملان الصغيرة بعدما يشلها الذعر.

تمنى أن يكونَ له صوت كَأزيرِ الطائِراتِ كي يزيِدَ من دعر الحملان. سمعت أمه الذئبةُ أمنيائِه فضحكت بفخرٍ لأن ابنها استوعب الدرس جيِّدًا. قالت تطمئننه:

- الحملان يا عزيزي تخافنا نحن الذئاب... وإذا كان للطائِراتِ أزيِرٌ مخيفٌ فلنا نحنُ عواءٌ ترتجفُ منه القلوب... ولنا مخالِبٌ وأنيابٌ تمزِّقُ اللحمَ وتخرقُ العظم.

اطمأن الجرو وسالَ لعابُه فضمَّته إليها معجبةً به. ربتت له ظهره وقبلته :

- والآن سأطعمُك اللحم حتى تشبع، وأسقيك من الدم حتى ترتوي. ثم مزَّقت قطعةً صغيرةً من الحمل المقتول، وشرَّعت تمضغُها كي تدسَّها في فمه الفاجر، ولكن الذئب الصغير سارع إلى خطف قطعة من بين أنيابها ودسها في فمه وراح يلوکها بِنهمٍ أثار اندهائس الذئبة أكثر فسألته:

- هل أعجبك طعم الحمل؟

ردّ وهو يهمهمُ جشعًا.

- أعجبنى... أعجبنى كثيرا... أشكرك يا أمي على هذا الحمل اللذيذ، وأشكر لك أكثر إعطائي هذا الدرس المفيد.

وهجم على الحمل ينهشهُ وقد سحرته رائحةُ الدم؛ وأعجبه الطعمُ الشهى فأقسمَ لأمه على أن يكون عند حسن ظنّها؛ فيغيّرُ حين يكبر على القطعان ويخطف الحملان المرحة اللاهية ويفجعُ أمهاتها بها.

أصابه الغرورُ ولكن لدهشته سمع أمه الذئبة تنهد بحرقة فسألها وهو يُمرّغُ وجهه بالدم إن كانت تشفق على النعاج... سارعت إلى النفي وأنبتته على هذا الظن، ولما سألها عمّا يقلقها ما دامت القطعان كثيرة والحملان الضعيفة تحت متناولٍ مخالبا وأنيابها؛ زفرت الذئبة بكثافةٍ وتنهدت بحسرةٍ مريرة وقالت بعد إلحاح منه:

- يحزنني يا بني أن أخبرك بأن كلَّ قطيع معه راعٍ؛
ولكل راعٍ كلبٌ يحرسُ القطيع، وهذه الكلاب تكرهُنا
نحن الذئاب، وتعملُ جهدها على إفشال خططنا،
وتسعى إلى حرماننا من ممارسة قوتنا وجبروتنا
بدعوى أننا نلُغ في دم الضحايا رغبةً في القتل، لا
رغبة بالطعام الشهي فقط.

ازدردَ الجرو بصعوبةٍ آخرَ قطعةٍ نهشَهَا، فلامت
الذئبةُ نفسها على أنها أفلقتَه وهزّت مفاصله الطرية
لذا سارعت إلى تطمينه.

- ولكن اطمئن يا عزيزي ولا تخف. فالكثير من
الرعاة لا يُحسنون تدريبَ هذه الكلاب. لهذا اطمئن
واشحذ أنيابك ومخالبك، درّبها إلى ساعةٍ عليك فيها
إثبات أنك الأقوى والأعظم من الكلاب كلّها؛ وأنت
قادرٌ على افتراس الحملان دون أن يعترضك أحد.



ومن ذلك اليوم ظلَّ هذا الذئبُ الصغير يشحذُ أنيابه ومخالبه ويتلقى الدروس على يد أمه الذئبة إلى أن كَبُرَ وصارَ ذئبًا أُعْبِرَ ممتلئًا بالغرور. لم ينسِ الدرسَ الأول ولا الدروسَ الكثيرة التي تعلَّمها من أمه قبل أن تموت بجراحٍ بليغةٍ أصابها بها ذاك الكلب الأحمر.

حزن كثيرًا عليها وتأثر بما أصابها حتى امتنع عن الطعام لأسابيع طويلة، قبل أن يقررَ الانتقالَ من الكلب الأحمر ويثأرَ لها.

كره الفراغَ الذي تركته بعد مصرعها بالقدر الذي أحبَّ الحملان وطريقةَ تمريغِ سحنته بالدم عند الافتراس. ظلَّ يحبُّ القتلَ ويحبُّ الكلابَ التي تغفو طوال النهار والليل بعيدًا عن القطيع؛ كما ظلَّ يكره الكلبَ الأحمر وتلك الكلاب التي درَّبها الرعاةُ على مقارعةِ الذئاب؛ وصدَّها عن القطعان ومن ثم ملاحقتها إلى موطنها في الغابة درءًا للخطر.

لكنَّ الكلاب بدورها لم تتعلم أهم درسٍ في هذا الصراع؛ وهو أن عليها أن لا تتوقفَ عند حدود الغابةِ بعد المطاردة، فعدوُّها يتربص بها دومًا ولا بد له أن يعودَ طالما لم يُطرد من الغابة التي يختبئ فيها؛ ففي الوقت الذي كانت الذئاب تُعلِّم أبناءها الدروسَ الجديدة كلَّ يوم لتطوير مهاراتها في الصيد والبقاء؛ كانت الكلاب تكرر الدروسَ ذاتها دون أن تتأكد من أن أحدًا من صغارها يطبِّق شيئًا من دروسها القديمة البالية.

هنا أيقن الذئبُ أن الكلابَ رغم وفائها للقطيع إلا أن عملها ناقصٌ دوماً؛ فهي تمنع الخطر عند حدوثه، والصواب أنه تمنَّعه قبل حدوثه.

نظرَ من أعلى النَّة على القطيع مُبتسمًا ثم قال في نفسه:

- يومًا ما يجب أن تحكّم الذئاب هذه المراعي وتضمّها إلى حدود مملكتها في الغابة. يجب أن يكون الراعي والمفترسُ ذئبٌ تخافه جميع الدواب والسباع.

ثم راح يتخيّل شكلَ المراعي دون الرعاة والكلاب، ويؤمّي النفسَ أن يرى النعاجَ يومًا مضطّرةً لتقديم أبنائها له حين تدركُ ألاّ أحدَ باستطاعته حمايتها منه.

الكتبُ المخذوع

عاد الذئب الأغير إلى وِجَارِهِ فِي الغَابَةِ مُتَخَنًا
بجراح أصابه بها ذلك الكلبُ الأحمر حارسُ القطيع
المُرْبِرب. هَرَعَتْ إِلَيْهِ الجِّراءُ الجائِعةُ، ولم تنتظر
زوجته الذئبةُ حتى يلتقط أنفاسه ويلعق جراحه
النازفة. سألت ممتعضة كمن تعرف الإجابة مُسبقًا:

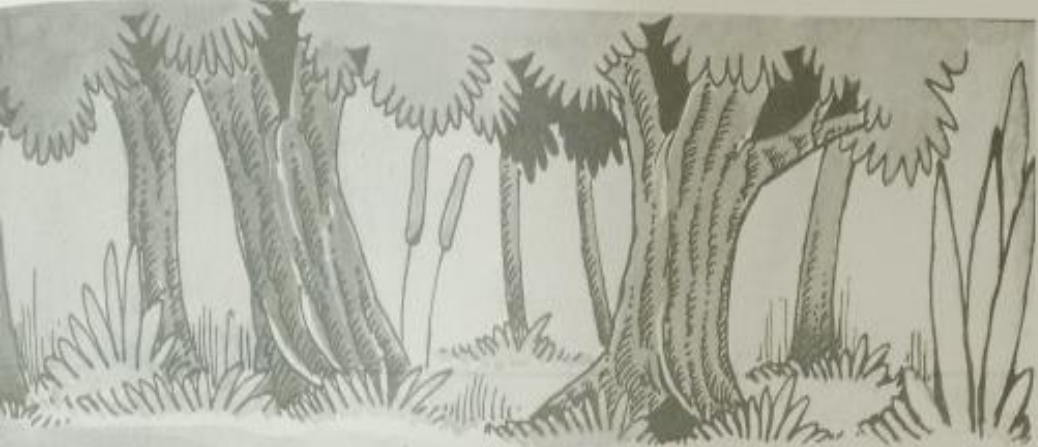
- أين النعجةُ التي ذهبت لاصطيادها وإحضارها لي
وللصغار؟

ووصوت الجراءِ فصرخَ الذئبُ مهمومًا:

- اتركوني وشأني الآن.

عذرتُهُ الذئبةُ فِي سِرِّهَا وتنهَّدت عاجزة عن تمالك
نفسها:

- إذن فالكلبُ الأحمر مرة أخرى!



هزّ رأسه بأسى وزمجر.

- مُد حرس هذا الكلب اللعين ذاك القطيع وهو يقف
لجميع الذئاب بالمرصاد... أخشى أن نموت جوعاً يا
زوجتي العزيزة، هذا إذا لم يقتلنا هو بمخالبه وأنياه
قبل ذلك.

ولما رأى الوجوم على وجهها وقرأ في عينيها اللوم
قال صارخاً:

- أنتِ أيضاً حين رأيتِ ذلك الكلب خفتِ ووليتِ
الأدبار، وتصلتِ من قسمك بالانتقام منه لمقتل أبيك
والتأر له.

لملمت صغارها وقالت خجلةً والحزن بدا واضحاً
عليها:

- هذا حق ولكني ذنبة في النهاية... أما أنتِ فذنبٌ
شرسٌ تهابك الكلاب والرعاة، وقد اختارتك الذئاب أن
تكونَ زعيمها مذ كنتِ يافعاً لشدة ذكائك وبطشك
وقوتك. أين اختفى الذئب العظيم فيك؟ هيا أخبرني.

طأطأ رأسه خزيًا وقال:

- ما زلت كما أنا إلا أمام هذا الكلب اللعين، فمذ جاء وهو يَكِرُّ ولا يعرفُ الفَرَّ. يسبقني دومًا بخطوةٍ ويطاردني حتى تتقطع أنفاسي.

وشرعَ يصيحُ بفعل الجراح ولمَّا سمعَ صياحَ الصغار من الجوع والخوف انتفض وحاولَ النهوض؛ ولكن الجراح أضعفته وأجبرته على الجلوس ثانية. أشفقت عليه الذئبة. اقتربت منه وراحت تمسحُ جراحه بيديها وتنهضُ من عزيمة وتطرُدُ الخوفَ من نفسه. ثم تساءلت بأسى:

- والحل؟ أمًا من حل؟

انتفضَ الذئبُ مرةً أخرى ولمَّا خذلتُه قواه برك أرضًا وزمجرَ من بين أنيابه الحادة.

- ليس لنا غير الحيلة، وأنا كما ترين لا أكاد أقوى على النهوض وأنت ترتجفين خوفًا لمجرد ذكر ذلك الكلب اللعين.

اعترفت الذئبةُ بحزن.

- هذا حق، فأنا لم أخف من كلب كخوفي من هذا الكلب الأحمر.

وأردفت بغیظ وحقد.

- إنه كلب شرس وعنيد.. يقطر الكره من عينيه؛ واللؤم من لعابه؛ كأنه يكرهنا ويتمنى زوالنا بالفطرة.

شرح لها الذئب تفاصيل الخطة التي نبئت في رأسه بعد ساعاتٍ طويلة من التفكير والتأمل، فشيّعه مع الصغار إلى باب الوجار. سار يُقدم رجلاً ويؤخر أخرى باتجاه القطيع.

لم يكذب يُشرف عليه حتى ألقى الكلب الأحمر واقفاً يتحفّز كأنما كان بانتظاره. شاهد الغضب جلياً في عيني الكلب وخمن أنه على وشك الانقراض عليه. عندها رفع الذئب يديه وسارع إلى القول:

- أرجوك يا سيدي الكلب أن تسمعني... لم آت هذه المرة للإغارة على القطيع، لقد تركتُ يا سيدي هذه العادة وأنا الآن مُسالمٌ قنوعٌ بحشائش الغابة وأوراقها الطازجة.

ضحك الكلبُ مزهواً بقوته وأنه استطاع أن يوقِفَ هذا الذئبَ الشرسَ عند حدّه، ثم سأله بخيلاء واستهانة:

- ولمَ جئتُ إذن، يا سيّد الذئاب؟

بدت السخريّة واضحةً في نبرة الكلب فأحنى الذئب رأسه وقال مُظهرًا الضعف والطاعة:

- جئتُ أطلبُ منك الصّفحَ والمغفرة، فأنت كلبٌ قويٌّ بل لم أرَ في حياتي كلبًا أقوى منك، أو أكثر منك إخلاصًا للقطيع. وقد لا تُصدّق أن أحدَ الذئاب مدحك البارحة بقصيدة شعر يذكر فيها قوتك وسطوتك وهيبتك في النفوس، فأكدتُ أنا على الفور للجميع صدقَ ما وصفك به.

- حقًّا. وماذا قال عني هذا الذئب الشاعر؟

- لستُ أحفظُ إلا بيتًا واحدًا من القصيدة الطويلة التي لا بد أن أعودَ حافظًا لها وأنشدها على مسامعك، وبين يديك.

- ما هو البيت؟

- الأحمرُ الضرغامُ يجري واثقًا... أن المراعي كلُّها
في مأمن.

ثم أردفَ بعدما رأى الغرور يتوزّع في عيني الكلب؛
وقد انتشى بما سمعه وراح يردّد البيت اليتيم همسًا
بزهو وخيلاء.

- ولأنك قويٌّ ومخلصٌ ومتسامحٌ مع الضعفاء من
أمثالي أطمحُ في أن تلبّي لي هذا المطلب الصغير.

انتفخت أوداجُ الكلب زهواً وغرورًا لهذا الإطراء؛
فأرخی عضلاته المشدودة واستراح في جلسته قائلاً
بأريحية:

- ما دمت قد اعترفت بضعفك وأقررت بقوتي فاطلب
ما شئت.

سرّ الذئب إذ خدع الكلبَ بمثلِ هذه السرعة فأمعنَ في
إظهار التذلل والضعف.

- كما ترى يا سيدي فأنا مُتخَنُّ بالجراح من معركتي
الأخيرة الخاسرة معك، وإن بقيتُ في وجاري
فسأموت؛ وأنت بالطبع لا يرضيك أن أموتَ قبل أن

أخبرَ الذئبَ الأخرى عن قوتك وجبروتك؛ فتتحاسى
الاقتراب من قطيعٍ تحرسُه أنت.

فكّر الكلبُ مليًا فلم يتوصل إلى معرفة مطلب الذئب،
ولكنه ابتهج كثيرا لرغبة الذئب في الإعلان عن قوته؛
فتخشاها الذئاب ويدفعُها صيئته بعيدا عن القطيع، وأن
يتسنى له أن يستلقي مرتاحا طول النهار مطمئن
البال؟ ليسهرَ الليلَ بصحبة كلبةٍ أعجبه فيها فروها
الرمادي النظيف! سارع الكلبُ إلى سؤال الذئب عن
مطالبه، فقال هذا بحياء مفرط:

- أرجوك وقد وقفتَ على مبلغ ضعفي أن تسمح لي
بالركض فقط كل صباح حتى يشتد عودي ولا أموت؛
فلا مكان في الغابة يصلحُ لممارسة رياضة الركض
صباحًا، وقد نصحني الطبيب بضرورة ذلك يوميًا.

ثم أردف بخبث.

- إلّا إذا كنتَ ترغبُ يا سيد الكلاب والمراعي حقًا في
أن أموت.



سارع الكلب إلى القول:

- لا أريدك أن تموت قبل أن تعلنَ على الذئبِ كلّها
أني قوي وجبار كي لا تسوّل لإحد منهم نفسه من
الاقتراب من مناطقي.

أخفى الذئب سرورَه البالغ، وتابع القولَ بمسكنةٍ
وتذلل:

- أفهم من هذا أنك تسمح لي بالركض في الغابة
باتجاه القطيع وحولها؟

أوماً الكلب برأسه قبولاً، وإمعاناً منه في طمأنة الذئب
مدّ يده وصافحه. نظر الذئبُ إلى مخالِبِ الكلبِ وأسرَّ
في نفسه قائلاً «سأقلّم هذه المخالب» ثم شكرَ الكلبَ
وودّعه، وراح يجري باتجاه الغابة لينقلَ الخبرَ
المُفرح إلى الذئبة التي جلست تنتظرُه على أحرّ من
الجمر خوفاً عليه من فشل الخطّة وخشية مصرعه
بين مخالِبِ من لا يرحم.

لاحقه الكلب بعينيه حتى توارى، وعندها تمدد
مستريح البال وأخذ يفكر بعد أن ردّد بيت الشعر
مرارًا بزهو؛ كيف سينام النهار قريبًا ليسهر الليل
بصحبة الكلبة ذات الفرو الرمادي التي أحبها من
النظرة الأولى وقد تقدّم لخطبتها البارحة.

شرع الذئب كلّ صباح يركض من الغابة باتجاه
القطيع ويقطع مسافةً أخذت تطول كلّ يوم، وفي كل
مرة يتوقف عند الكلب، يوقظه من نومه ويأخذ الأذن
منه بأن يتوغلّ باتجاه القطيع أكثر كي تعود له عافيته
من الركض.

- أرجوك أن تتلطف أيها الكلب العزيز بأن تسمح لي
بالركض مسافة أطول.

يهزّ حينها الكلب رأسه في كل مرة ويتثاءب وقد هدّه
النعاس والكسل؛ فيقرقر الذئب بضحكة لا يسمّعها
الكلب الغارق كليًا في النعاس، ثم يواصل الركض
حتى صار بإمكانه الإشراف على القطيع راصدًا
حركاته وسكناته التي لم يكن بقادر على الإحاطة بها
سابقًا.

في آخر مرّة توقّف الذئب ليطلب الإذن من الكلب
زجره هذا وهو يتثاءب، ورجاه أن يتركه يستمتع
بالنوم فمن عادته أن يسهر طويلا ومن حقّه أن ينام
بعد كلّ ذلك التعب.

نظر الذئب إلى عضلات الكلب المرثخية وإلى عينيه
المغمضتين ولعابه السائل، وليطمئن أكثر إلى أنه بات
كسولاً وضعيفا لكّزه برفق. رفع الكلب رأسه قليلاً
وفتح عينيه بمشقة قائلاً برجاء:

- أرجوك يا صديقي... دعني أستمتع بنومي.

- استمتع يا صديقي استمتع لكنني أحضرت لك
عصيراً أعدته لك خصيصاً زوجتي العزيزة التي
تتغنى دوماً ببطولاتك.

انتفخ صدر الكلب بكبرياء وتعالٍ وتناول من يد الذئب
كأس العصير وشربها دفعةً واحدة، ثم عاد ليستغرق
في النوم مُجدِّداً وهو يتغنى بقوته التي أجبرت هذا
الذئب على خدمته...



ثم راح يفكر أن يأمره في الغد بإعداد عصير الفراولة الطبيعي له لأنه يفضلُه على المشروبات الأخرى.

اطمأن الذئب بعد عدّة أيام إلى أن هذا الكلب قد باتَ خاملاً وضعيفاً للغاية، خاصّةً بعد أن شجّعَه على السهر اليومي مع زوجته الكلبة الحسنة بفروها الرمادي بعيداً عن ضجيج القطيع.

عندها قهقهة بصوت عال، وانطلق إلى الغابة. نادى زوجته الذئبة وصغارها وطلب من الذئاب كلها أن تتبعه؛ مُعلناً أن الكلب الذي كانت الذئاب تخشاه قد انتهى أمره.

اندفع الذئبُ وإلى جانبه الذئبة ولما رأتهما النعاج أخذت تنغو ثغاءً حزينا. انتقى الذئب خروفاً مُربراً، بقرَ بطنه غير عابئ بنباح الكلب المرهق؛ وتعمّد الذئب أن يمرّ بالخروف من جانب الكلب الذي نهض بصعوبة وأقوى ما فيه النباح. حاول الكلبُ أن يهاجم الذئب، فضحك هذا طويلاً وقهقهه ساخراً منه:

- لقد كان هذا قبل أن يبطرك الكسل ويخدعك
الاطمننان الكاذب. ألا ترى أنني قصصتُ مخالبتك،
وبردتُ أنيابك البارحة أثناء نومك؟

ضحك الذئب بينما راح الكلب يتفقد جسده وأسنانه
ويقع بعد كل خطوة يحاول أن يخطوها نحوه.

ضحك الذئب منه ممتلئاً بالسخرية والانتقام قائلاً:

- المُخدّر الذي تشربه كلَّ يوم يبدو أنه أثر عليك يا
صديقي المسكين. هيا عد الآن إلى النوم ودعنا نكمل،
نحن عملنا الذي خططنا له وجئنا من أجله.

ثم لكز الكلب فسقط أرضاً... وراح ينبُح والذئاب
الأخرى التي بالغت في مهاجمة القطيع دون أن يقوى
الكلب على النهوض والوقوف على قوائم أضعفها
طول الاسترخاء والكسل؛ وعصيرُ الخديعة الذي
تجرّعه لأيام عديدة؛ حين اغترَّ بقوته وانطَلت عليه
حيلةُ عدوّه الذئب.

حُكْمُ الْقَوِي

نظرَ الجبلُ الكبيرُ إلى نفسه فأعجَبته ضخامته
وارتفاعُ رأسه وصلابةُ صخوره؛ فدقَّ على صدره
العريض وصاحَ مفاخرًا:

- أنا قوي... وليس هناك من هو أقوى مني. إنَّ
أقدامي راسخةٌ في الأرض ورأسي ينطحُ السحاب.

ثم نظرَ من أعلى إلى الوادي الأخضر العريض وقال
مزهوًا:

- هذه مملكتي ولن يطأها أو يبقى فيها أحد إلا بإذني.

سمعَ الأرنبُ صوتَ الجبلِ الغليظِ فخاف وهرب إلى
جحره يرتجف. رآه الجبلُ فضحك منه، وازداد
غرورًا فصاح بصوتٍ عال كهزيم الرعد.

- أيها الأرنب! تعال وامثلْ أمامي... أنا الجبل القوي.

تقاطرَ الخوفُ على الأرنب. خشي أن يبقى في الجُحر فيغضب الجبلُ منه، ويضربه بحجارته الكثيرة المُدبَّبة. أطل برأسه في حذرٍ ثم زحف ببطء ووقف أمام الجبل يرتجف. نظرَ الجبل إليه باحتقار وسأله:

- هل هناك من هو أقوى مني يا هذا؟

هزَّ الأرنبُ رأسه نفيًا، وحين صرخ به الجبل مُؤنبًا إيَّاه على صمته، رد بحلق جاف:

- لا... لا أيُّها الجبلُ العظيم. ليس هناك من هو أقوى منك بالتأكيد.

اطمأن الأرنبُ قليلاً إذ ظنَّ أنه أرضى غرورَ الجبل، وأنه سيُخلي سبيلَه ويتركه يعود إلى جحره، أو يأكل العشب الطري النابت في الوادي القريب. ولكنه ارتجف حين عادَ الجبل إلى الصياح.

- إذن لماذا تجرّأتَ على تشويه حجارتِي ورمالي أنتَ وبقية الأرناب بالبحور؟



اصطكَّت أسنانُ الأرنب وارتعدت فرائضه. سُرَّ
الجبَلُ من خوفه فأكملَ متوَعِّدًا .

- لو اعترفت بقوتي حقًا لَمَّا تطاولت عليَّ وبعثرت
الحجارة هنا وهنا بوقاحتك.

ثم حَمَلَ صخرةً كبيرةً وانتَهَرَه قائلاً:

- هيا انصرف من هنا. وبلِّغ الأرانب والحيوانات
الأخرى والعصافير بأنني لا أريدها في مملكتي، ولا
فيما يجاورها من أراضٍ خضراء خصبة.

بكي الأرنبُ وأمطرت عيناه دموعًا غزيرة. توسَّلَ
للجبَل أن يبقيه والحيوانات والعصافير في جورها
وأعشاشها، فهذه بيوتها وما يحيط بها أوطانها ومن
الصعب أن يترك الكائن الحي بيته ووطنه... رفضَ
الجبَلُ توسلاتِ الأرنب وأصر على طرده وطرده باقي
الحيوانات والعصافير.

- إن لم تذهبوا حالاً سأضربكم بهذه الصخرة الكبيرة.

لَوَّحَ الْجِبْلُ بِالصَّخْرَةِ فَفَقَزَ الْأَرْنَبُ هَارِبًا. وَلَمَّا رَأَتْ
الْحَيَوَانَاتُ الْأَرْنَابَ يَرْحَلُ خَافَتْ كَثِيرًا وَتَرَكَتْ
جُجُورَهَا عَلَى الْفُورِ.

تَبِعَتْهَا أُسْرَابُ الْعَصَافِيرِ حَزِينَةً عَلَى فِرَاقِ أَعْشَاشِهَا.
ثُمَّ شَرَعَتْ الْحَيَوَانَاتُ وَالْعَصَافِيرُ تَلُومُ الْأَرْنَابَ عَلَى
خَوْفِهِ وَرَحِيلِهِ الْمُبَكَّرِ. طَاطَأَ الْأَرْنَابُ رَأْسَهُ بِحِزْنِ
وَقَالَ:

- حَقًّا. صَعَبٌ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ أَنْ نَعَادَرَ بِيوتَنَا وَأَوْطَانَنَا
وَلَكِنَّهُ حَكْمُ الْقَوِيِّ عَلَى الضَّعِيفِ.

شَرَعَتْ الْحَيَوَانَاتُ وَالْعَصَافِيرُ تَبْكِي بِحِرْقَةٍ فَقَالَ
الْأَرْنَابُ:

- إِنَّ الْبُكَاءَ لَا يُجْدِي نَفْعًا، عَلَيْنَا مِنْذُ الْآنَ أَنْ نَبْحَثَ
عَنْ وَسِيلَةٍ تَعِيدُنَا إِلَى بِيوتِنَا وَأَوْطَانِنَا.

اسْتَرَاخَتْ الْحَيَوَانَاتُ وَالْعَصَافِيرُ نَوْعًا مَا لَصُوتِهِ
الْوَائِقِ، وَلَكِنَّهَا قَلَّبَتْ أَيْدِيهَا عِزًّا.

- وكيف سنعود وليس هناك من هو أقوى من الجبل،
ومن عادة القوي ألا يرضخ إلا لمن هو أقوى منه؟

ضحك الأرنب ضحكة مُبتسرةً وقال:.

- بل هناك الأسد... مَلَكْنَا نحن الحيوانات. سيضرب
بالتأكيد الجبلَ ويؤدِّبه ويُعيدنا إلى بيوتنا.

وقال السنجاب مؤكِّداً:

- منذ وُلِدْتُ وأنا أسمع أن الأسدَ ملكُ الحيوانات
وزعيمُها الأقوى الذي لا يُقهر.

وقال الفأرُ ببعض الزهو:

- إنَّه مخيف حقاً. ألا ترون حين نسافر إلى الغابة
كيف تفر منه الغزلان والحميرُ والثيران على قوتها؟
والأكثر من هذا ألم تروا كيف تتوارى منه القطط
المتوحشة؟

استبشرت الحيوانات خيراً إذا اقتنعت بأن الأسدَ قويٌّ،
وأن باستطاعته إقناع الجبل بعودة الجميع إلى الوطن،
فإن لم يفتنع فحينها ولا بد سيضربه ويعيدهم بالقوة.

تحركت الحيوانات تنوي الذهاب إلى عرين الأسد
الغابة لترفع له شكاتها. تلقت الأرنب فرأى
العصافير حزينة ولم تتبعه. سأل كبيرها عما يحزنه
وقد بات الحل قريباً. قال العصفور:

- أجل نحن في منتهى الحزن لأننا طيورٌ لن يهتم
الأسدُ بها أو يساعدها.

طأطأ الأرنبُ رأسه تعاطفاً مع صديقه العصفور،
بينما صرخت الحيوانات بالأرنب أن يسرع لمقابلة
الأسد قبل حلول الظلام. مشى نحوها بتثاقل. ثم توقف
حين ناداه عصفور صغير.

- أيها الأرنب الطيب! لقد جاءتني فكرة.

هرع الأرنبُ إليه مُستبشراً. فقال العصفور الصغير
للعصفور الكبير:

- أو لم تقل دائماً أن النسرَ ملكُ الطيور؟

ثم التفت إلى الأرنب وقال مُفَاخِرًا.

- أجل. فنحن العصافيرُ أيضا لنا ملكٌ قوي يخافه
الجبَل ويخشاه.

نظر العصفورُ الكبيرُ إلى العصفور الصغير بإعجاب
وصاح:

- هذا حق. سنذهب نحن العصافير إلى النسر ونشكو
الجبَلِ إليه فيأتي معنا؛ ويضربه بمنقاره الحاد حتى
يعلن التوبة.

وطار العصفور الكبيرُ من فوره قاصدا النسرَ في
مملكته على القمم العالية، في حين أسرع الأرنب
والحيوانات إلى الأسد في الغابة.

وجَدَت الحيوانات على باب العرين حُرَّاسًا كثيرين
مُدَجَّجِينَ بالأنياب والمخالب الحادة. خَافَت كثيرا ولكن
الأرنب تشجَّع قليلا وطلبَ مقابلةَ الأسد لأمر هام.

ضحك كبيرُ الحُرَّاس ساخرا، وحين رأى الحزنَ في
عينيَّ الأرنب رَقَّ له قلبه وكاد أن يأذن له بالدخول
على الأسد؛ لولا أن تذكَّرَ أوامره الصارمة.

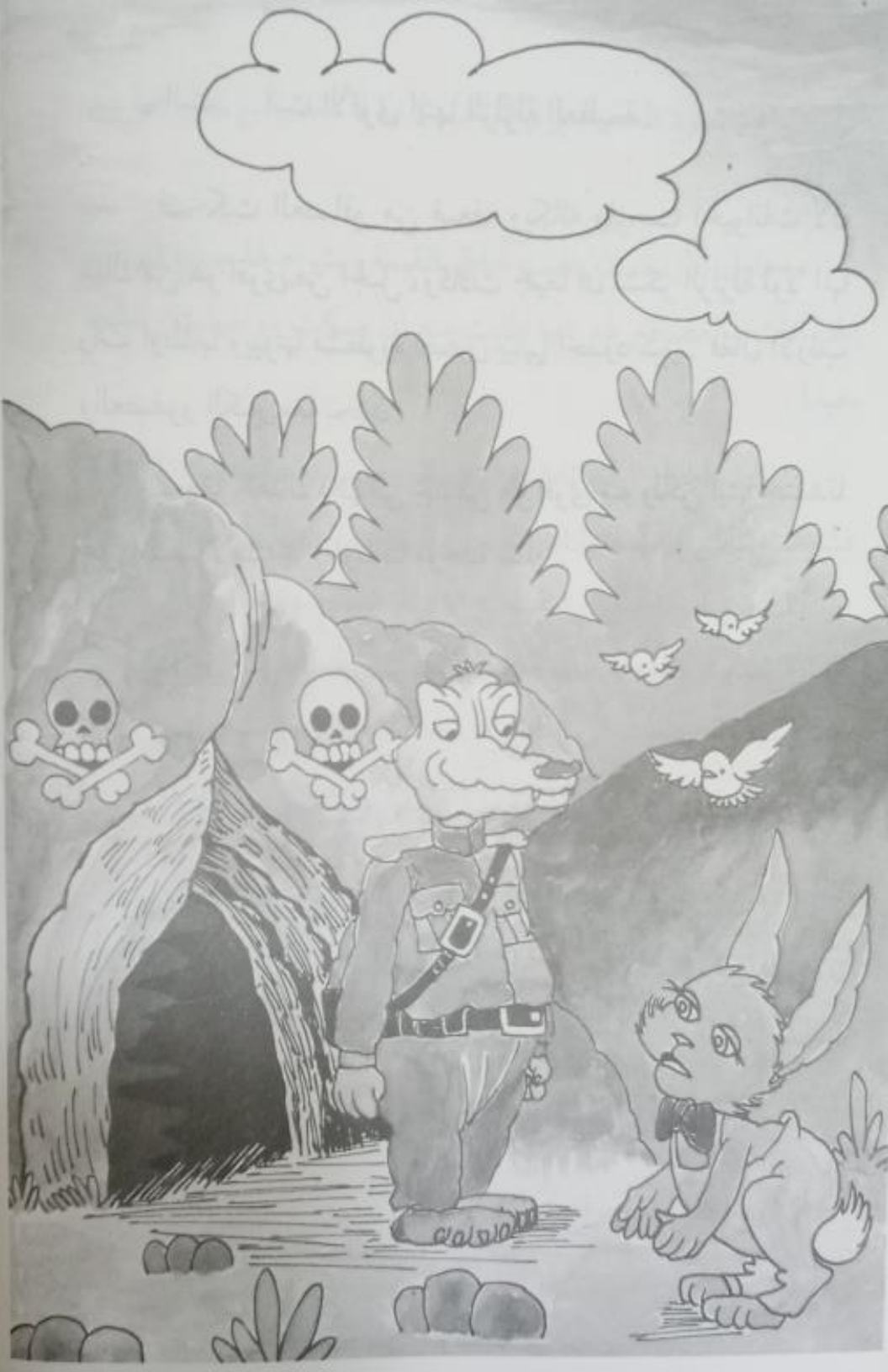
- إِيَّاكَ أَنْ تَزْعَجَنِي وَتَقْلُقَ رَاحَتِي مَهْمَا كَانَتْ
الظُرُوفُ. حَتَّى لَوْ احْتَرَقَتْ الْغَابَةُ بَيْنَ فِيهَا.

وَيَعْرِفُ أَنَّ الْأَسَدَ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ النَّهَارِ
يَكُونُ نَائِمًا، وَلَنْ يَتَوَرَّعَ إِذَا مَا أُيْقِظَ عَنْ ضَرْبِهِ
بِقَبْضَتِهِ الرَّهِيْبَةِ فَيَحِطِّمُ رَأْسَهُ دُونَ شَفَقَةٍ.

- أَوْ مِنْ أَجْلِ حَفْنَةٍ مِنَ الْأَرَانِبِ وَالسَّنَاجِبِ وَالْفَنْرَانِ
تَوْقِظُنِي أَيُّهَا الْمَعْتَوَهُ؟

هَكَذَا تَخَيَّلْ مَا قَدْ يَحْدُثُ لَوْ عَصَى أَوْامِرَهُ وَقَامَ
بِإِقْظَاظِهِ. تَعَرَّقَ وَجْهُهُ لِمَجْرَدِ تَخَيَّلِ هَذَا، وَخَفَقَ قَلْبُهُ
بِشِدَّةٍ مِنَ الْخَوْفِ.

قَلْبٌ كَبِيرٌ الْحِرَاسِ يَدِيهِ حَيْرَةٌ وَعَجْزَاءُ، فَأَدْرِكُ الْأَرْنَْبُ
أَنَّ رِحْلَتَهُ الطَّوِيلَةَ لَمْ يُصِبْ مِنْهَا غَيْرَ التَّعَبِ وَالنَّكَرَانِ
وَالْيَأْسِ.



استدار بحزن فتبعته الحيوانات مُثقلَةً بالهم وقد فقدت مثله ثقَّتها بالأسد، وعند طَرْفِ الغابة رأى الأرنب العصفورَ الكبيرَ عائداً بانكسارٍ واضحٍ ففهمَ من انقباض ملامحه وشحوبه الظاهر أن النسرَ أيضاً قد خذله.

سمع العصفورُ الكبيرُ يقولُ مؤكِّداً في حزنٍ وقهرٍ بالغٍ:

- لقد طردني شرَّ طردة. لقد قال «إنني أقطعُ النهار مُنقِباً عن الغذاء ولن أتخلَّى عن ساعاتِ راحتي من أجل عصافير بلهاء؛ لا وظيفة لها في الحياة غير الزرققة المزعجة وملاحقة الحشرات التافهة».

وبكى العصفور بكاءً مُرّاً قبل أن يستطرد.

- الأغرب من هذا أنه طلب مني أن أبحث والعصافير عن مكان آخر بعيداً عن الجبل القاسي ما دامت هذه

رغبته. وأن علينا احترام رغبة الأقوياء لا معاداتهم
والتجراً عليهم.

أيقنت الحيوانات والعصافير أن ليس هناك من يُعيدها
إلى أوطانها، فأخذت تبكي بكاءً مريراً سمعته غيمةٌ
كبيرةٌ كانت تتجولُ في السماء.

سألت الغيمةُ العصفورَ والأرنبَ عما يبكيهما فأخبراهما
بشأن الجبل. غضبت الغيمةُ وطلبت من الحيوانات
والعصافير أن تتبعها إلى هذا الجبل.

أمرته أن يُعيدها إلى أعشاشها وجحورها، وأنذرته
بمائها الغزير إن لم يستجب لأمرها. ضحك الجبل
ساخرًا ومدَّ لسانه لها غير عابئٍ بغضبها.

- أمطريني أيتها الغيمة، فمن قال إنني لست بحاجة
إلى الماء كي أغتسل وأنظف نفسي من أوساخ
العصافير والأرانب والسناجب؟ هيّا افعلي ما أمرتك
به.

غضبت الغيمةُ أكثر وأنزلت في الحال أمطارًا كثيفة
تجمعت سيولًا أخذت تشقُّ لها طرقًا عميقة وصلت
إلى الجحور والأعشاش، ولما رأت الحيوانات

والعصافير أن السيولَ جرّفتَ وخرّبتَ بيوتها صاحت
مُطالبَةً الغيمةَ أن تكف عن غضبتها.

امتعضت الغيمةُ منها، وامتعضت أكثر حين قهقهه
الجبَلُ ساخرًا ناعنًا إياها بالغيبة. أمسكت الغيمةُ ماءها
ورحلت وهي تزمجر غضبي.

- فلتتشرّدُ العصافيرُ والأرانب لأنها لا تُقدّر من يمدّ
لها يدَ المساعدة.

حاولَ الأرنبُ أن يُطيّب خاطرَ الغيمةِ ويشرخ لها
سببَ انزعاج الحيوانات والعصافير، غير أنها طلبت
منه أن يسكت وواصلت رحلتها بعيدا.

انتهر الجبَلُ الحيواناتِ والعصافيرَ وأمرها مُجددًا
بالرحيل بقسوةٍ أكثر من سابقتها، فشرعت تبكي
وتنتحبُ بصوتٍ يُدمي القلب.

سمعتها الزلزلة، وسألتها عما يبكيها فأخبرها الأرنب
عما كان من أمر الجبل. انتفضت الزلزلة غيظاً،
وأرسلت إلى الجبل إنذاراً شديداً للهجة بأن ستمدمره إن
لم يترك العصافير تعود إلى أعشاشها والحيوانات
إلى جحورها بالحال. ضحك الجبل باستخفاف.

- أنا قويٌّ بما فيه الكفاية ولن يرهيني شيء على
الإطلاق.

زمجرت الزلزلة لهذا التحدي الصارخ فاهتزت الجبل
وترنَّح قبل أن تدكَّه الزلزلة وتشطره شطرين بينهما
أخدود عميق. أخذ الجبل يصرخ فسألته الزلزلة.

- من الأقوى أيها الجبل التافه؟

رد الجبل وهو يرفع ذراعه المبتورة.

- أنت... أنت الأقوى أيتها الزلزلة العظيمة.

ضحكت العصافير من ضعفه وبكائه وفرحت
الحيوانات لأن هناك من هو أقوى من الجبل، وتعالى
أصواتها جميعاً بالشكر قبل أن تعاود البكاء والتحسّر
إذ وجدت أوطانها وبيوتها مشطوبة نصفين بينهما

أخدود كبير لن يلتأم يوماً. فقال الأرنب والعصفور
الكبير معا بحزن.

- حقا. هناك دائما من يجد من هو أقوى منه، ولكن
ليتنا اعتمدنا على أنفسنا لاسترجاع أوطاننا موحدةً
سالمة.

غضبتُ الزلزلةُ من كلامهم واعتبرته إهانة لها،
وتتكرراً لصنيعها معهم، فضربت الأرض من تحتهم
لتقضي عليهم، فتصدّعت وتشققت بشقوقٍ كبيرة.

اختبأ الجميع حتى هدأت وغادرت قبل أن يجدوا
وطنهم صارَ خراباً، وحينما اقترح الفأر أن يبحث
الجميع عن وطن جديد صاح به الأرنب.

- كلا، لن نرحل. سنبقى هنا ونُعيدَ إعمارِ الوطن من
جديد.

- لقد انشطرَ الوطن وتهدّم.

قال العصفورُ الكبيرُ ذلك قبل أن يصيحَ به الأرنب
غاضبًا.

- سنبني جسورًا على الأرض، وجسورًا أقوى في
النفوس كي لا نُطرد من وطننا ثانية، وكي لا نلجأ
لأحدٍ كي ينتصر لنا... وطننا هو ما نبنيه لا ما نسكنه
كما هو.

- والجبل؟!!

- لو لم تكن ضعفاء وجبناء لما تجرّأ علينا... هيّا
لنباشرَ الإعمار والبناء من جديد، فباتّحادنا هذا
سنكون أسودًا ونسورًا وغيمات وزلازل في وجه من
سيفكر يومًا بطردنا من الوطن.

عَبِير وَالْعَصَافِير

(1)

بكت عبير حين قال لها أبوها:

- اذهبي يا عبير ونامي.

بكت لأن غرفتها تخلو من التلفاز. لقد شاهدت أفلام الكرتون ورحلة سندباد. وتريد أن تشاهد المزيد.

- الساعة لم تتعدَّ الثامنة.

قالت هذا لأمها. كفكفت الأمُّ دموع عبير. قبَّلت خديها وقالت:

- الأطفال الصغار مثلك يا عبير ينامون مبكرا.

قالت عبير:

- ولكن أخي لم ينام بعد؟

سمعتها أبوها. ضحك. نهض من مكانه. انحنى عليها.
أخذها بين ذراعيه. قبلها مازحًا:

- أخوك ليس طفلاً صغيراً. فهو في الصف التاسع
وهو في غرفته يحضّر الدروس.

ابتسمت عبيرٌ بفرح .

- أنا أشطر منه. فقد حضرت دروسي وأحفظ جدول
الضرب أيضاً.

ربتت أمها لها ظهرها.

- أنت شاطرةٌ حقاً... تكونين أشطرَ حين تذهبين إلى
النوم الآن حتى لا تتأخري عن المدرسة.

هزّت عبير رأسها ممانعةً. قالت أمها.

- ألا تحبين العصاير؟

ضمت عبيرُ يديها إلى صدرها بشوق وفرح.

- أحبُّ العصافير. أحبُّها كثيرًا. لقد رسمتُ بعضها على دفترتي... لم أرسم الحدأة، إنها تفتك بالعصافير الجميلة والصيوان. أنا أكره الحدأة والطيور الجارحة.

قالت أمها.

- وأنا كذلك يا حبيبتى لكن العصافير تنام مُبكرًا، لتصحو مع الفجر نشيطة يقظةً وتملاً الدنيا غناء وزقزقة.

أحنت عبيرُ رأسها باستياء. قبلت والديها ومضت إلى السرير. قالت لنفسها وهي تندس في الفراش. «والدائي لا يحب أن أجلسَ معهما. سأذهب مع العصافير في الصباح ولن أعود».

لذا توجَّهت نحو النافذة مسرعةً وفتحتها كي يتجدد الهواء؛ ولكي تسافرَ مع أوّلِ عصفورٍ في الصباح.



(2)

استيقظت عبير على زقزقة العصافير. فتحت عينيها
فرأت عصفورا يقفز من الشجرة القريبة إلى النافذة.
مدت له ذراعيها قائلة:

- انتظرنى أيها العصفور الجميل.

دارَ العصفورُ حول نفسه مُغرِّدًا. لمعَ ريشه الزاهي
تحت نور الشمس. امتلأت عبير بالسعادة والحبور.
تمنت لو أن لها ثوبا جميلا كثوب العصفور. نهضت
لتمسك به. طارَ العصفور إلى الشجرة من جديد.
تمنت لو أنها تطير مثله وتغادرُ البيت كي يقلقَ عليها
والداها فيتركانها حين تعودُ تسهر إلى ما بعد الثامنة

.

خلعت ثوبها وقالت للعصفور.

- خذ أيها العصفور الطيب ثوبي واعطني ثوبك.

لم يسمعها أو يهتم بها العصفور. كان يطاردُ فراشةً ملوّنة على الشجرة. قبل أن تحاولَ حدأةً رآته الانقضاض عليه واصطياده. راوغها العصفور وانطلقَ هارباً بكلِّ قوته واختبأ في عشّه الذي لا يمكن للحدأة الوصول إليه بين الأغصان الصغيرة.

أطلقت عبير صرخةً ابتهاج بعد نوبة دعر انتابتها خشيةً أن يقع العصفورُ فريسةً بين مخالبِ الحدأة التي وقفت بدورها على غصن شجرة تبحث عنه وتحاول معرفةً مكانه.

لكنّ الحدأة بعد قليل غطت في نوم عميق ووقعت عن الغصن كصخرة هوت إلى الأرض كسلى؛ قبل أن تنتفض مستيقظةً وتصرخُ من الألم وقد انكسر جناحها فلم تعد تقوى على الطيران.

ارتدت عبير بسرعةٍ ثوبها ضاحكةً ثم فرحت لأنها ليست عصفورا وحيداً لا يجد من يرعاه ويحذره من الأخطار والأخطاء كوالديها، واكتشفت أيضاً أن الحدأة تعرّضت لما تعرّضت له لأنها لا تنام مبكراً فغالبيتها النعاسُ صباحاً؛ واستسلمت للنوم بسبب إرهاق السهر وما يسببه من كسلٍ وخمولٍ في الجسد والعقل، بينما نشاطُ العصفور ساعده على المرواغة والانتصار على الحدأة رغم أنها تفوقه قوة وسرعة.

لكنّها ظلّت تحبُّ العصافير وترسمها. ظلّت تُطيع والديها. تنام مبكرة لتصحو مبكرة فلا تتأخر عن المدرسة؛ لأن السهر لمن في عمرها عبارة عن عدوّ يتربص بالنشاط ليقضي على مواطن الإبداع والنجاح واليقظة في حياتنا؛ فالشمس لا تنتظر أحداً كي تشرق، ولا تمنع أحداً أن ينام حينما تغرب.

الصِّغَارِ وَالْمَطَرِ

شاهد «عصام» وهو في ساحةِ المدرسة غيومًا بيضاءَ تركض مسرعة؛ كأنَّها كراتٌ صغيرة من الثلج تركُّها الريحُ الباردة. هتف عصام في سرِّه «هل تراها ستمطر»؟ ثم رأى الغيومَ تكبر وتتجمُّع ويخفُّ ركضُها بعدما أدركها التعب.

قال «ليتها تمطر» تذكر كيف خرَجَ في الأسبوع الفائت مع الصغار يبتهلون من خلف الحاجة «نزهة» _ تلك المرأة الضريرة_ أن ينزل المطرُ بعدما انحبس طويلا هذا العام.

المطر كما تعلَّم في المدرسة لا يأتي دون غيوم تتلبد في السماء حاجبةً الشمس، وهو إذ ينزل يسقي الزرع والناس والماشية، كما إنه يغسلُ البيوت والطرقات ويقضي على أمراض كثيرة.

لهذا أحب عصام المطر، كما أحب الحاجة «نزهة» كثيرا إذ خرجت أمام الصغار تدعو وتتضرَّع إلى الله بصوتها الحنون. أخذها يومها إلى البيت وأطعمها

حتى شبعت، ثم أعادها إلى كوخها المعزول في طرف البلدة، وتركها تبتهل مجدداً كي ينزل المطر.

شاهدَ في الساحة كيف تتلبّد الغيوم في السماء؛ وكيف يتحول لونُها إلى أسود كالفحم، بحثاً عن الشمس فلم يرها. إنه يحب الشمس كثيراً ويعرف أنها تبعث الدفاء وتنبثُ الزرع وتنضجُ الثمر، يدرك أن لكلِّ مظهر من مظاهر الحياة فائدةً ما ومصلحةً للكائنات والطبيعة.

ولكنه أحبُّ أن تتوارى لبضعة أيامٍ خلف غيومٍ مثقلة بالمطر. وإذ أحس بنقطة ماء تسقطُ على وجهه صاح فرحاً «إنها تمطر، السماء تمطر» ركضَ في الساحة وركض الصغار فرحين؛ وإذ أخذت خيوطُ المطر تنهمرُ غزيرة توارى مع الصغار في الصفوف حشياً البلب والإصابة بالبرد والزكام .

أزَّ جرسُ الرّواح والمطر ما زال ينهمر خيوطاً رشيقة تفرغ الأرض بانتظام. عاد عصام إلى البيت ركضاً. دخلَ منادياً.

- أمي! أمي! لقد نزلَ المطر.

خَاصَّتْهُ أُمَّهُ مِنْ مَعْطَفِهِ الْمُبَلَّلِ وَطَلَبَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَجْلِسَ
بِجَانِبِ الْمَدْفَأَةِ إِلَى أَنْ تَحْضُرَ لَهُ الْغَدَاءُ. لَمْ يَرْتَحِ
عَصَامُ فِي جَلْسَتِهِ فِيمَا الْمَطَرُ يَقْرَعُ النَّافِذَةَ كَأَنَّمَا يَطْلُبُ
الْأَذْنَ بِالْدُخُولِ. وَإِذْ وَقَفَتْ أَمَامَ النَّافِذَةِ وَأَحْسَ بِالْبَرْدِ،
فَطِنَ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يُعْرَجْ عَلَى كُوخِ الْحَاجَةِ نَزْهَةً؛
فِيخْبِرُهَا بِنُزُولِ الْمَطَرِ وَيَسْأَلُهَا إِنْ كَانَتْ تَرِيدُ شَيْئًا
مِنَ الطَّعَامِ الَّذِي اعْتَادَ أَنْ يَرْسِلَهُ إِلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ؛ عَرَفَانًا
مِنْهَا لَهَا حَيْثُ إِنَّهَا تَأْتِي أحيانًا وَتَسْرُدُ عَلَيْهِ وَعَلَى
أَخَوْتِهِ الصَّغَارِ حَكَايَا مَسْلِيَّةٍ إِلَى أَنْ يَسْرِقَهُ وَيَسْرِقَهُمُ
سُلْطَانَ النَّوْمِ.

نَدِمَ كَثِيرًا وَهَمَّ أَنْ يَخْرُجَ وَلَكِنْ خَوْفُهُ مِنَ الْبَلَلِ وَالْبَرْدِ
سَمَّرَهُ أَمَامَ النَّافِذَةِ وَلَمْ يَعُدْ يَرَى خِيوطَ الْمَطَرِ جَمِيلَةً
كَمَا كَانَتْ قَبْلَ قَلِيلٍ.

عَادَتْ أُمُّهُ بِالْغَدَاءِ. رَأَتْهُ وَاجِمًّا حَزِينًا فَسَأَلَتْهُ:

- مَا بِكَ يَا عَصَامُ؟

نكس رأسه ثم أخبر أمه بسبب حزنه. ضحكت الأم وربتت له ظهره قائلة:

- أنت شهيم وطيب يا عصام. ولكن اطمئن، لقد أرسلتُ إلى الحاجة نزهة الطعام لتأكل، والحبّ أيضًا لتندفّقاً قبل أن تأتي أنت من المدرسة.

ابتسم عصام وشكّر أمه، وهمّ أن يُقبل على الطعام، ولكنّه تذكّر أنه ما يزال يشعرُ بالنتقصير في حق الحاجة نزهة، وأن عليه أن يفعل شيئاً.

حمل قصيدةً حفظها في المدرسة في عقله وذهب إلى غرفتها النائية متحدّياً المطرَ والبردَ والظلام الذي بدأ يهبط مُبكراً نتيجة غياب الشمس خلف الغيوم الكثيفة؛ لينشدها إياها مرّداً ما قاله له الأستاذ في المدرسة.

- نعم فالأرض بحاجةٍ ماسّة للمطر والشمس؛ كحاجة المعدة للطعام والشراب، والجسد للباس أو النوم بعد التعب، ولكن العقل تحديداً يحتاج للمعرفة والعلم...تذكّر هذا جيّداً وطبّقه في حياتك.

اندفع إليها مُسرِعًا وارتدى في أحضانها وهي تبتسم
له، وبعد أن أنشدَها القصيدة مسحت على رأسه
بحنانها الفريد قائلة.

- نعم هذا ما كنتُ أحتاجه يا بني.

- الاستماع للقصيدة؟

ازدادت ابتسامة الحاجة فقَبَلته على جبينه قبل أن تقول
وهي تلاعب أنفه:

- بالتأكيد، والاستماع أيضًا لنبضات قلبك المُحب.
فالإنسان الكبير يا بني كالطفل، يحتاج بأن يشعرَ
بمحبة الآخرين واهتمامهم به، فالعقل يحتاج إلى
المعرفة والعلم بالتأكيد، لكنَّ الروح تحتاج إلى المحبة
الصادقة النقيّة كي تشعرَ بالسعادة والدفء.

